

٤

أبو نصر الصياد وأحمد بن مسكين

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

أبو نصر الصياد وأحمد بن مسكين.ــ الرياض.

١٧ ص، ١٧X ٢٢ سم ــ (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ١ ــ ٩٩١ ــ ٢٠ ــ ٩٩٦٠

١ــ القصص القصيرة العربية ــ السعودية

أ ــ العنوان ب ــ السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤٩

ردمك: ١ــ ٩٩١ ــ ٢٠ ــ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٩

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

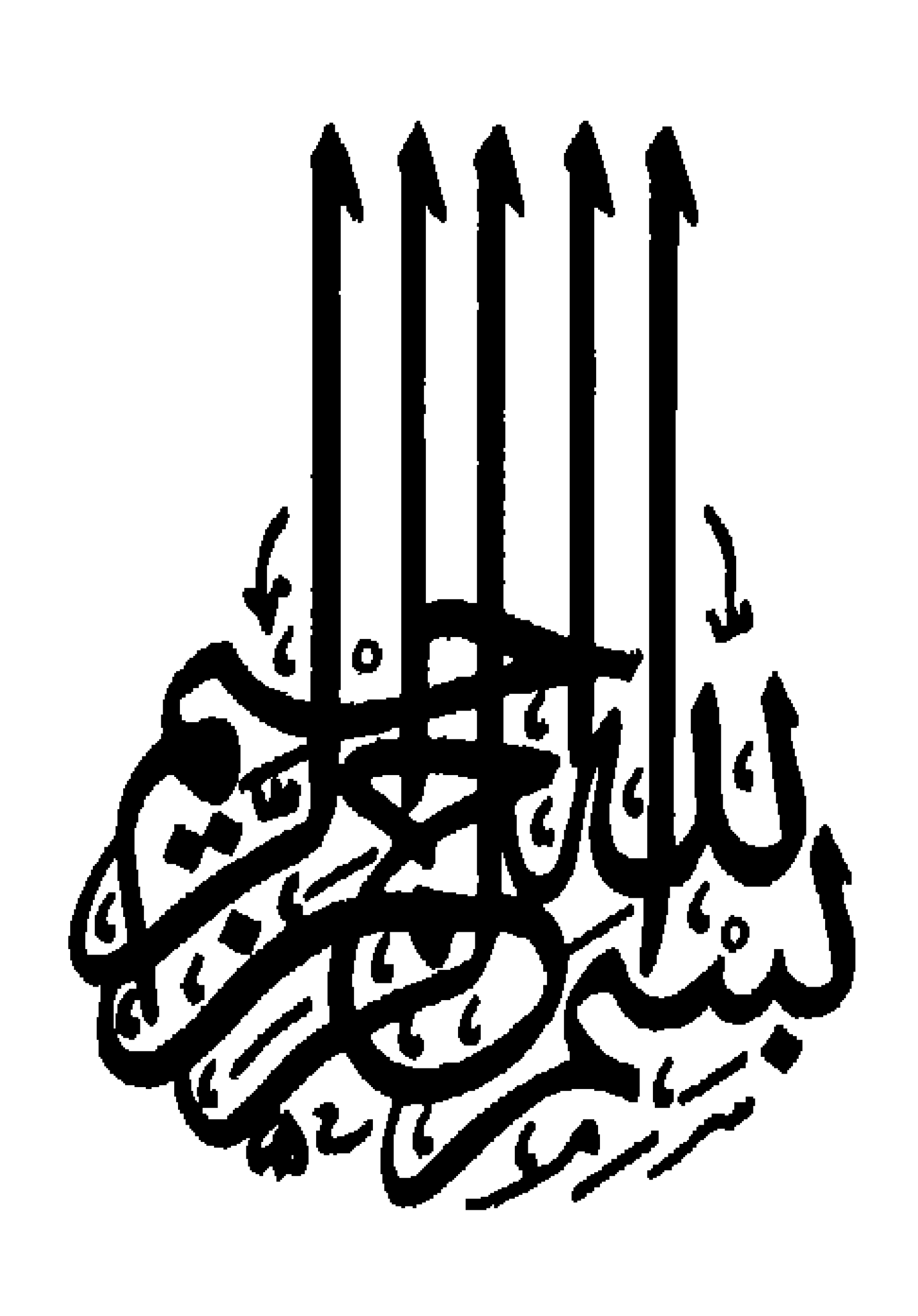
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

حُبِسَتِ الأمطار، واشتدَّ القحطُ والجفاف، ونفدت الغلالُ، وعمت المجاعة أرض الكوفةِ، فعاش الناسُ في بؤسٍ وحرمان، خرج الأتقياء لصلاة الاستسقاء يدعون ربهم الرحمةَ والمغفرةَ، ينتظرونَ فرجًا يُغيث البلادَ والعباد.

لقد طال الانتظار، وكاد الجوع يفتك بالناس.

خرجَ أبو نصرٍ الصيادُ منْ بيتهِ حاملاً قفَّتهُ وشباكَهُ، فقد اعتادَ أن يخرجَ كلَّ يومٍ باكرًا إلى شاطئِ النَّهرِ باحثًا عن رِزْقِه. ولكنَّهُ عادَ هذا اليوم، مثل كلِّ يومٍ خاوي الوفاض: إلاَّ من همومٍ شائكةٍ ينزفُ منها قلبهُ ألمًا على صغارٍ تركهم في بيتهِ المتواضعِ، يتضورون جوعًا مع أمِّهم، لا يجدون ما يسدُّ رمقهم ويدفعُ عنهمُ غائلة الجوعِ والحرمان.

كان هذا اليوم من أشد أيام أبي نصر، لم يبق في بيته شيءٌ من مؤنةٍ يسدُّ بها رمق أطفاله الصغار، حتى كسرات الخبز نفدت.

اسودّت الدنيا في عينيهِ، ماذا يفعل؟ كان فيما مضى يملأ قفَّتُه بأنواعٍ من الأسماكِ يذهبُ بها إلى السوقِ يبيعُها ويشتري بثمنِها خبزًا ولَحمًا وخضراواتٍ ويعود بها إلى المنزلِ ليأكلَ منها مع أولادِهِ وهو في سرورٍ وحُبورٍ.

وفي طريقِهِ إلى بيتِهِ، سألَ نفسَه ماذا أفعلُ في المنزلِ؟ الصغارُ ينتظرون الطعامَ بفارغِ الصبرِ، وكم ستكونُ صدمتهُم كبيرةً عندما يرونَ القُفَّةَ فارغةً.

قادَتْهُ قدماه إلى المسجدِ الذي واظبَ على أداءِ الصلاةِ جماعةً فيه على الرغم من أَنَّ الأذانَ لم يحنْ بعدُ، ولكن علّه يدعو الله أن يخفِّف عنه ما هو فيهِ، وأن يزيلَ بؤسه وغمَّهُ.

وقفَ بَيْن يدي اللهِ مصليًا داعيًا.. مُلقيًا بهمومهِ إلى مَنْ تكفَّلَ بإزالتها وفي لحظةِ خشوعٍ نسيَ فيها دُنياه وآلامَها، وارتوى من رحمةِ الله الأملَ والصبر الذي كان يصبو إليهما، ولكنهُ في هذه اللحظاتِ الجميلةِ لم ينسَ أطفالهَ وبكاءَهمُ من الجوعِ، فكانت صورُهم في مخيلتِهِ داعيًا لهم أنْ يُفرجَ اللهُ كربَتَهم.

فاطمأنت نفسه وهدأت ثورة حزنه.. وجفت دموع ألمه على أطفاله الجياع..

وفي هذه اللحظةِ الإيمانيَّةِ النورانية الرائعة شعرَ بيدٍ رقيقةٍ حانيةٍ تُربِّتُ على كتفهِ.. وتقتربُ من وَجْنَتَيْهِ تمسحُ دموعَهُ..

– مالك.. ماذا أصابَكَ يا أبا نصر؟

التفتَ وإذا بشيخهِ بشر الحافي ينظر إليهِ وابتسامةٌ مشفِقة رحيمة تزيِّن وجهًا مطمئنًا يضيء النور ثناياه ويهبُ حبًا لمن رآه.

نهض أبو نصر وعانقَ شيخَهُ.. وألقىَ كُلَّ ما في جعبتِهِ من هموم وآلام سأله عن سبب تلك الهموم والشجون، فأجابه: إنَّهُ الفَقْرُ يا أخي.. لم أصطد شيئًا هذا اليوم.. ولا اليوم الذي قَبْلَهُ ولا اليومَ الذي قبلَ قبلهِ... و...

ـ لم أعهدك يا أبا نصر إلاّ رجلاً صبوراً لا تهزّه رياح البؤسِ والفقر مؤمنًا بما كتبه الله له..

ـ واللهِ يا صاحبي لولا صغارٌ حرمَهُم الجوعُ نومَهُمْ ما ذرفْتُ دمعةً.

ـ لا باس يا صاحبي .. هَوِّن عليك.. مادمْتَ قد سَألتَ من لا يرد سائله تعالَ نسأل اللهَ مَرَةً أخرىَ فلا ييئس من رَوْحِ الله إلا القوم الظالمون.

ويرفَعُ بشرٌ يَديْه إلى السماء، ويلهجُ بالدُّعاءِ ويقفُ أبو نصرٍ عن يمينه يؤمِّنُ على دعائه..

«اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحَزَن[١]، والعَجْزِ والكَسَلِ، والبخلِ والجُبْنِ، وضَلَعِ[٢] الدَّيْن وغلبة الرجالِ.

(١) الحزن: الغم والهم.

(٢) ضلع الدَّيْن: ثقله

«اللهم ارزق عبدك الفقير رزقًا وفيراً»

«اللهمَّ – يا واسعَ العطاءِ – فرِّج على عبادك المساكين»

«اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً»

وحينما انتهيا من الدعاءِ التفت إلى أبي نصر وقال له: اذهبْ وحاولْ مرةً أخرى يا أبا نصر...

كلماتُ صاحبِه سَرَتْ في عروقِهِ.. وأضاءَت منافذَ قلبِه وعقلِه وأمدَّتهُ بشحنةِ طمأنينةٍ لم يشعرْ بها في حياتِه، فألهبتْ وجدانَه.. وأشعلَتْ براكينَ شوقه إلى اللهِ فأخذَ يلهجُ بالدُّعاءِ اللهُمَّ ارزُقني.. يا أرحمَ الراحمين.

وبدأت الدموعُ تسيلُ على وجنتيه(١) فتتخلَّلُ لحيتَه فتحيي نضارتها.. وكأنّها عشبٌ يابسٌ باهتٌ حَنَّتْ عليهِ مياهُ المطرِ.. فنضَّرته.. وأحيته..

ويرجعُ أبو نصر إلى حيثُ كان.. ويقفُ أمامَ الشاطئِ مُخاطبًا.. بعد أنْ ألقى شباكه:

أيُّها البحرُ.. ما عُدتُ إليك إلا راجيًا رزقَ ربي وربك الذي سَخَّرك لعبادِه.. وأنا لا أطلبُ رزقي إلاّ منه.. إنَّه هو الرَّزاقُ.. يا الله. يا الله.

(١) وجنتيه: أعلى الخدين.

وفجأةً.. ثَقُلَت الشباكُ.. الحمد لله.. الحمد لله.. لابدّ أن الرزقَ أتى.. ويشدُّ الشباكَ.. فيرى سمكةً كبيرةً تُحاوِلُ تخليصَ نفسِها من شباكِ أبي نصرٍ.. ولكن هياتَ لها.. إنَّهُ أمرُ اللهِ.. إنَّها رزق أبي نصرٍ يأخذُها فرِحًا.. مستبشِرًا.. حامِدًا الله شاكرًا له فضلهُ.. مُتذكرًا صديقه بِشْرًا. ويذهبُ إلى السوقِ في الحالِ ويبيعُها بثمنٍ لا بأسَ به.. إنَّهُ لا يطمعُ بأكثر من طعام لأولادِهِ.. ويعودُ حامِلاً طعامَ صغارِهِ.. وكأنَّه يحمِلَ مالَ العالمِ بَيْنَ يدَيهِ.. ويرى صغاره أمامَ عينيه.. يلتفون حَوْلَه.. يلتهمونَ طعامًا لذيذًا ما ذاقوا مثله منذ أسابيع مضت. وفجأة يتذكر صديقَه بِشْرًا.. يعزِلُ رقاقتين وقطعةً من الحلوى وبينما هو في نشوته عَلاَ صوتُ المؤذِن داعيًا إلى صلاةِ العصر «الله أكبر الله أكبر..»

ويصحو الرجلُ من أحلامه.. مرددًا الله أكبر الله أكبر.. ويتجه إلى المسجد.. باحثًا عن صديقهِ الوفي.. وفي رُكنٍ بعيد، يراه.. مُسبحًا مستغفرًا.. عابدًا.. خاشعًا ينتظر إقامة الصلاة.. يقتربُ منه.. مبتسمًا.. منتصرًا.. وكأنه طفلٌ وجدَ ضالَّتهَ.

صديقي الحبيب لقد أكرَمني اللهُ وهذا رزقٌ اقتسمتُهُ لك.

ابتسم «بشرٌ» ابتسامةً عميقةً ربَّما لا يفهمُها إلاّ من ذاقَ حلاوة

الإيمانِ.. وعرف معنى الدعاء.. فهو لا يرى في هذه الدنيا ألذّ من لقاءِ الله.. ولا أمتَع من خلوةٍ إلا مع الله..

ردَّ عليه بِلُطْفٍ: خُذْها إلى صغارِك يا صديقي فنحن لا نُؤْجَرُ على الدعاء. وإلاّ لما استجابَ اللهُ لَنَا..

وفي لحظةٍ.. تَعلَّمَ أبو نصرٍ دُرُوسًا لا يتعلمها غيرُه مُدّة دهْرٍ كاملٍ.. نَظَرَ إليهْ.. نظراتِ شُكْرٍ وإعجاب.. ثم صَلّيَا معًا وحمل أبو نصرٍ ما كانَ قدْ جلبَهُ لشيخهِ وخرجَ منَ المسجدِ قاصداً بيتَهُ، وما كاد يمشي خطوات حتى اصطدَمتْ نظراتُه بوجهٍ بائسٍ حزين.

ذَكّره بواقعٍ ليسَ ببعيد.. ذكره بحالِه وكيف كان يشكو القلّة.. اقتربَ منهُ.. يا صاحبي.. يا ابن مسكين.. مالي أراكَ حزينًا بائسًا.

– آه يا صاحبي.. أتيتُ إلى ربي شاكيًا حالَ صغارٍ.. يتضورون جوعًا ويتلوون ألمًا.

وتخرج دمعتان.. إنهما دمعتا مؤمن خاشع.

تذكّرَ فيهما أبو نصرٍ للحظاتٍ حالَهُ.. لا تيأس يا صاحبي.. فلا يأس مع الدعاءِ ولا قنوط من رحمة الله.

خُذْ رزقكَ.. الذي ساقَهُ اللهُ إليك.. هاتان رُقاقتان وقطعة من الحلوى لأطفالك.

أخذها أحمدُ فَرِحاً مُهلِّلاً.. حامداً الله.. الذي لا يَردُّ سائلَهُ..

- شكراً لك يا أخي وجزاك الله خيراً.

هذا أحمدُ بن مسكين.. يحملُ طعامًا .. يحملُ فرحة لأولاده الجياعِ.. وأمانًا.. وسعادةً.. وما مِن لحظةٍ أحلى من أن تزرَعَ فرحةً في وجوهِ مَنْ تحب.. أو بسمةً في قلوبِهم.. فكيفَ لو جَلبْتَ لهم طعامًا لذيذًا يسكِّنُ جوعَهُم.

أمورٌ كثيرةٌ كانت تدورُ في خَلَدِ أحمد بن مسكينٍ وهو عائد إلى بيته.. وصورٌ كثيرةٌ كانت تُرَسمُ أمامَ وجههِ وفي غمرة سعادته. سمع صوتًا بعيدًا اقترب منه، عرف أنه بكاء طفل اقترب أكثر فقد عرف الطفل، إنه طفل يتيم كان جارًا له قبل سنوات استفاق من نشوةِ فرحهِ.. وأقبل عليه يسأله: ما لك يا بني؟؟

لم يَعِرْهُ الطفلُ انتباهًا بَلْ تابعَ حديثه مع أمه قائلاً:

أماه.. أنا جائعٌ.. بطني يؤلمني.. وأنا أشمُّ رائحة الطعامِ أماه.. لماذا لا تشتري لي طعامًا؟

فتجيبه امرأةٌ مسكينةٌ تدرَّعت بالسواد:

صبرًا يا ولدي.. إذا صبرت فإنَّ الله لن يتركَكَ جائعًا.. إنَّه يُحبّكُ بشرط أن تصبرَ.. وألاّ تضجر..

أماه.. أنا أُحِبُّ الله.. ولكن بطني لا يرحمني.

– لا بأس يا بني.. إني أرى فرجَ الله قريبًا.

ومَنْ كان الفرجُ الذي أرسلَهُ اللهُ يا ترى؟!

لقد كان أحمد بن مسكين..

اقتربَ من الصغيرِ وقبَّلهُ.. وقالَ لَهُ: يا صغيري.. إنَّ الله أرسلَ لكَ هذا الطعامَ.. فهو يعرفُ أنك تُحِبُّه.

ودَفَعَ إليه كُلَّ ما لديهِ من طعامٍ دون أَنْ يُفكّر ..

سُرَّ الولد وأخذ يُقبِّل أمَه.. ويشكُر الرجلَ.. ويحمدُ ربَّه وسرعان ما تناول الطعام بنهم ووجهه ينطقُ بالفرحِ والحبورِ(١) وأحمدُ بنُ مسكين ينظر إليه ودموعُ الفرحِ تذَرف من عينيه.

وأخيرًا عاد أحمدُ بُن مسكين أدراجه.. ويدُه خاويةٌ من طعامِ أولادِه

(١) الحبور: السرور.

ولكن قلبه مليءٌ بالإيمانِ والسعادةِ، يفيض برحمة الله وكرمه.

وما قطعَ شروده.. إلا صوتٌ .. قادمٌ من جهةِ المسجد..

- ابنَ مسكين.. يا ابن مسكين..

ليس الصوتُ غريبًا.. التفت فإذا بوجهِ صاحبهِ - أبي نصر -.. يتهلّل فرحًا.. ويشعُّ ضياءً ونوراً..

- ما بك يا أبا نصر؟ ما الخبر؟..

- البشرى - يابن مسكين - إنها قافلةٌ قادمةٌ منْ خراسانَ وتجارها يطلبونك في الحال، إنهم قرب المسجد.

لَمْ يصحُ ابنُ مسكين من هولِ ما سمع.. ولكنه اتجهَ فوراً إلى المسجدِ .. وهو لا يعي.. ماذا هناك؟!..

اقتربَ من الرجالِ.. حيّاهم بتحيّةِ الإسلامِ.. فردُّوا بأحسنَ منها.. اقتربَ منه رجلٌ تبدو ملامح الثراءِ على وجههِ.. وتنطلقُ من ثيابهِ رائحةُ الغنى والعزّ.. وعلى وجههِ تبدو أماراتُ الطيبةِ.. فكللّتهُ ضياءً قال له: أأنت أحمدُ بن مسكين؟..

أجابَه: نعم..

عانَقَهُ.. وقَبَّلَهُ.. وهو يُردِّدُ.. الحمد لله.. الحمد لله..

لقد بحثتُ عَنْكَ طويلاً يا أخي.. الآن شعرتُ بالراحةِ.. ومِنْ دَهْشةِ ابن مسكينٍ.. وشهقة جموعِ الحاضرين.. واستغرابهم.. قال أنا! هل تعرفُني! لعلَّك مخطئٌ يا أخي!..

- نعم.. إِنّك تشبهُهُ.. إِنَّك تشبهُه كثيراً..

- أشبه مَنْ؟! أخبرني بالله عليك يا أخي.. قَبْلَ أَنْ أُخبِرَك.. لا بُدَّ أنْ أُسلِّمَكَ أمانةً.. لطالَما ناء[1] ظهري من حَمْلِها.. ولطالما أرْهقتني.. وحرمَتْ مضجعي من النوم...

- خُذْ هذه القافلةَ..

- ماذا أفعل بها.

- إِنها لك يا رجل.

نظرَ أحمدُ بن مسكين خلفَه.. ورأى ما رآه.. ثم صَمَت.. وكأنّ لثامًا لجمهُ.. وحُمّى سرت في عروقهِ فأفقدته توازنَه.. وقال: لي أنا؟

- نعم.. وهذه عشرة آلاف دينار خالصة لك أيضًا.

(١) ناء: أثقل.

- لابُدَّ أَنَّكَ مخطئٌ.. هل لكَ أن تعرِّفَني بنفسِك؟:

- نعم.. إنّه حديثٌ يطولُ شرحُهُ.. ولابُدَّ من جلْسَةٍ طويلةٍ.. لأروي قصتي.

وفي زاوية من زوايا المسجدِ.. جَلَسا.. وحولَهُما عددٌ كبيرٌ من المصلين.. وكان بعضُهم غيرُ مصدقٍ وبعضهم يُحَوْقل وقسم منهم يُكبرٌ ويهلّلَ.

بدأ التاجرُ قصتَه قائلاً:

منذ سنة قَدِمَ والدُك إلى خُراسان.. وكانَ مُجاهداً مغواراً نبيلَ الخلق.. سَمْحَ النفسِ.. كريمًا.. وشَهْمًا.. أعجبتني خلالُه[1] فاتخذتهُ أخًا وصديقًا حميمًا.. وذاتَ يومٍ احتجْتُ إلى بعضِ النقودِ فاستقرضتهُ فأقْرضَني.. وغابَ..

عاهدتُ نفسي أن أتاجرَ له بمالهِ الذي أقرضني إيّاه.. ونَفَّذْتُ ما عاهدْتُ.. وكان رِزْقًا وفيراً.. وتجارةً مُباركةً..

فنما مالُه كثيراً.. وبحْثتُ عنه وبحْثتُ.. فلم أجده.

---

(١) خلاله: صفاته.

وأخيراً علمت أنه نال الشهادة في سبيل الله.

وتابْعتُ سؤالي عن أهله.. فقيل لي.. إنَّ لَهُ ابنًا اسمُه أحمد يقطنُ في الكوفةِ.. ففرحْتُ فَرَحًا ما بعده فرح.. وشدَدْتُ رحيلي باحثًا عنك.. وها أنا اليوم أراك.. وكأنّي أراه.. فأشكر الله على جزيلِ عطائهِ فلتَأْخذِ الأمانةَ يا صاحبي.. وادعولي بالرّحمةِ والمغفرة..

أجاب أحمدُ.. وكأنَّهُ لا يُصدّقُ ما سمعَ.. بارك الله فيك يا أخي.. يا خير التجار نعم الصاحبُ أنت.. ونعم التاجرُ الأمينُ أنت..

وتنفرج أساريرُ أحمد.. ويتهلّلُ وجهُه بالبشر.. ويتجه إلى الله شاكراً مصليًا، ثم قام بتوزيع ما جادت بهِ نفسُه على إخوتِه المصلينَ، ولم ينسَ صديقه أبا نصرٍ الصيادِ فقد خصَّهُ بحصةٍ كبيرةٍ.

ومن ثمَّ عاد إلى أولادِه حاملاً لهم البشرى والغنى.. وتيقنَ أنَّ الله معه.. وأنه نعم المولى ونعم المصير.

ومرَّت الأيام على أحمدَ بنِ مسكين وها هو يبيعُ ويشتري.. ويتصدَّقُ ويزكي.. وينمو ماله نمواً واضحًا فيُعَرفُ بأنَّهُ من أكابرِ التجارِ وأكثرِهم إيمانًا وأمانةً.. وأفضلهم عطاء..

وظل يضع نصْبَ عينَيْه قصة اليتيمِ والأرملةِ.. وكيف أَنَّ الله منَّ عليه بالرزقِ الوفير وذاتَ ليلةٍ رأى في المنامِ.. أَنَّ القيامة قامت وأَنَّ الملائكةَ تنادي عليه للحساب.. فيُسْحَب للميزان.. فيُؤْمَر بسيئاتِه فتوضَعُ في كِفَّة.. فيراها كالجبالِ فيشعُرَ بالخوفِ الشديد، ويُؤمَر بحسناته فيؤتى بها وتُوْضَع في الكِفَّةِ الأُخرى ولكنَّها لا ترجحُ على كِفَّةِ السيئات، فيشعرُ بخوفٍ شديد.. ويظنَّ أَنَّهُ مع الهالكين، فيُنادى: هل بقي لأحمد بن مسكين شيءٌ. فيقال : نعم الرُّقاقتان والحَلْوى (الطعام الذي أعطاهُ لليتيم) فيُؤتَى بها فتوضَعُ في الميزانِ فتميلُ كِفَّةُ الحسناتِ قليلاً.. فيُنادى: هل بقي له شيءٌ آخر؟ فيُقال نَعَمْ، فَرَحُ الأرملةِ واليتيم، فيُؤْتى به فيوضع في الميزان، فتميلُ كِفَّةُ الحسناتِ أكثرَ فأكثر ولكنَّها لا ترجحُ فيُنادى: هل بقيَ له شيءٌ آخر؟ فيقالُ: نعم، إيثارُهُ ودموعُ أولادِه. فيؤتَى بذلك ويوضَعُ في الميزان فترجح كفةُ حسناته فيتهلل وجهه ويسمعُ مُنَاديًا يقول: ليدخلْ أحمد بن مسكين الجنَّةَ..

يصحو من نومِه مُهللاً ليدركَ أَنَّ العمل القليل قد يقودُ صاحبَهُ إلى الجنةِ إنْ قُصِد به وجْهُ الله تعالى...


obeikan
Printing & Packaging